

النجمة التي نسيت أن تضيء

حمادة حامد محمود نور الدين

في قريةٍ صغيرة على ضفّة النيل، كانت تعيش بنتٌ اسمها ريما، لها ضفيرتان طويلتان وجيبٌ مليء بالحصى الملوّنة. وكانت ريما تحبّ شيئاً واحداً أكثر من اللعب: أن تنام على سطح بيتها وتعدّ النجوم.

وفي ليلةٍ من الليالي، وبينما هي تعدّ، قالت: «واحدة، اثنتان، ثلاثة... ثلاثةٌ وسبعون، أربعةٌ وسبعون...» ثم توقّفت وفتحت عينيها على اتّساعهما. نجمةٌ صغيرة، بحجم حبّة البرتقال، كانت تهبط من السماء ببطء، تتأرجح مثل ورقةٍ في الريح، وتقول بصوتٍ رفيع: «آه، آه، أنا أسقط! هل من أحدٍ يمسكني؟»

ركضت ريما وفتحت يديها، وسقطت النجمة فيهما بخفّةٍ ودغدغة. كانت دافئة، لكنها لا تضيء. بدت مثل مصباحٍ مطفأ.

«من أنتِ؟» سألت ريما.

«أنا نجمة، واسمي لَمَع،» قالت النجمة وهي تتنهّد. «وأنا في ورطة كبيرة. نسيتُ كيف أضيء.»

ضحكت ريما: «كيف تنسين؟ أنت نجمة!»

«حدث الأمر هكذا. كنتُ ألمع كلّ ليلة مع إخوتي. وفي مرّةٍ نظرتُ إلى الأرض، ورأيتُ البيوت الصغيرة والأطفال النائمين، وفكّرتُ: ماذا لو كان نوري لا يفيد أحداً؟ وبمجرّد أن فكّرتُ هكذا، انطفأتُ. وسقطتُ.»

جلست ريما على حافّة السطح، ووضعت لمع على ركبتها، وفكّرت طويلاً، ثم قالت: «لا تحزني. سنجد حلّاً. لكنّنا نحتاج إلى مساعدة. هيّا نسأل الجدّة.»

نزلتا السلّم على أطراف أصابعهما. كانت جدّة ريما تجلس في المطبخ تعجن الخبز في عزّ الليل، لأنها لا تنام إلا قليلاً. نظرت إلى النجمة المطفأة، فلم تدهش. قالت: «آه، نجمةٌ نسيت. حدث هذا في زمن جدّتي أيضاً. اذهبا إلى الشيخ ديك.»

«الشيخ ديك؟» سألت ريما.

«ديكنا العجوز في السطح الآخر. هو أوّل من يرى الفجر، وأقدم من يعرف الضوء.»

لكنّهما لم تكادا تخرجان من البيت حتى هبّت ريحٌ باردة، وسمعتا صوتاً مخيفاً يصفّر فوق الأسطح: «من هناك؟ من يمشي في الظلام؟» كان خفّاشاً عجوزاً ضخماً يُدعى أبو جناح، يحرس الليل، ولا يحبّ أن يسير أحدٌ بعد منتصف الليل. نظر إلى لمع المطفأة وقال بصوتٍ كالصرير: «نجمةٌ بلا ضوء؟ هذه تُعدّ مخالفة!»

ارتعشت لمع في يد ريما، لكنّ ريما رفعت ذقنها وقالت: «نحن في مهمّة مهمّة جداً يا سيّد أبو جناح. نريد أن نُعيدها إلى السماء قبل الفجر. هل تساعدنا؟» ظلّ الخفّاش صامتاً لحظةً طويلة، ثم قال بتنهيدة: «حسناً. لكنّني سأطير فوقكما، وأقول لكما إذا اقترب أحدٌ.»



صعدت ريما ولمع إلى سطح العمّ سيّد المجاور، فوجدتا ديكاً ضخماً بريشٍ برتقالي وأحمر، واقفاً على سور السطح كأنه ملك. قالت ريما: «يا شيخ ديك، هذه نجمةٌ نسيت كيف تضيء.»

نفش الديك ريشه وصاح بصوتٍ غليظ: «كوكو كوكو! قلتُ لكم إنّ السماء ستشتكي يوماً. اسمعي يا صغيرة: النجمة لا تضيء لأنها تؤمر بالإضاءة. النجمة تضيء لأنها تحبّ أحداً.»

«أحبّ؟» سألت لمع بصوتٍ خافت.

«نعم! الضوء ليس شيئاً تملكينه في صدرك مثل الحجر. الضوء هديّةٌ تُعطينها لمن تحبّين. فإن لم تعرفي لمن تعطينها، انطفأتِ.»

نظرت لمع إلى ريما. كانت ريما تنظر إلى الأفق، حيث ظهر خطٌّ أبيض خفيف يعلن اقتراب الفجر. قالت ريما: «الفجر سيأتي. هيّا نصعد إلى أعلى مكان في القرية، فلعلّ السماء تتذكّر.»

أعلى مكانٍ في القرية كان منارة الجامع القديم. صعدت ريما ثلاثاً وثلاثين درجةً وهي تلهث، ولمع في جيبها. وعند القمّة، حيث الهواء بارد والمدى واسع، رأتا السماء كلّها: نجومٌ كثيرة ترمش، وبينها فراغٌ صغير يشبه سنّاً ساقطة. قالت لمع: «هذا مكاني.»

وكان أبو جناح يرفرف فوقهما طوال الطريق، يصفّر تحذيراً كلّما مرّ ظلٌّ مشبوه: «قطّةٌ عند الزاوية! حاذرا! لا بأس، إنها تلعب فقط!» وكانت ريما تضحك رغم خوفها، لأنها تشعر لأوّل مرّة في حياتها أنّ الليل ليس عدوّاً، بل مدينةٌ كاملة لها سكّانها وقوانينها، تُفتح لمن يعرف أن يقول: من فضلك.

«هل تريدين أن تعودي؟»

«أريد... لكنّني أخاف أن لا أستطيع. ماذا لو بقيتُ مطفأة؟»

أمسكت ريما بيدها، وقالت بصوتٍ مرتجف: «حين أخاف من الظلام، تغنّي لي جدّتي. جرّبي أن تغنّي لي أنت.»

لم تعرف لمع أغنيةً من الأرض. لكنّها تذكّرت لحناً صغيراً تغنّيه النجوم لبعضها، نغمةً ناعمة مثل رنين الجرس. بدأت تدندن به بصوتها الرقيق، والنسيم يحمله فوق القرية كلّها. وبينما تغنّي، رأت وجه ريما الصغير تحتها، عينيها الواسعتين، وفرحتها الصادقة. وفجأةً شعرت بشيءٍ دافئٍ يشتعل في صدرها، كأنّ شمعةً صغيرة أُضيئت.

ثم رأت نفسها تتوهّج، ببطءٍ في البداية، ثم أكثر، ثم أكثر، حتى صارت أجمل من كلّ نجومٍ في السماء. ارتفعت من يدَي ريما كما ترتفع فقاعة، ودارت حولها دورةً كاملة، ثم صعدت إلى مكانها الفارغ بين إخوتها.



صفّقت النجوم من بعيد، وسمعت ريما، أو خيّل إليها، ضحكةً فضّية تملأ الهواء. ثم رأت نجمةً صغيرة بين الكلّ تومض لها وحدها ثلاث مرات: ومض، ومض، ومض. كأنها تقول: شكراً.

ومن فوق، أطلق أبو جناح صرخة فرحٍ جعلت الكلاب النائمة تنبح: «نجحنا! نجحنا! سجّلوا الأمر في دفتر الليل!» وحلّق دورةً كاملة حول المنارة، ثم خفّ نحو الأفق، وهو يردّد بصوتٍ مبحوح أنّه سيحكي للخفافيش كلّها عن هذه الليلة.

نزلت ريما درجات المنارة ونامت في سريرها وهي تبتسم. وفي الصباح سألتها جدّتها: «هل عادت النجمة؟»

قالت ريما وهي تفرك عينيها: «نعم. لكنّها لم تعد لأنني أمرتها. عادت لأنها وجدت من تحبّه.»

ومنذ ذلك اليوم، كلّما نظرت ريما إلى السماء، كانت تعرف أيّ نجمةٍ هي لمع. هي الصغيرة التي تومض ثلاث مرات حين تصعد ريما إلى السطح. وإن سألك طفلٌ لماذا تتلألأ النجوم، فقل له: لأنّ لكلّ نجمةٍ طفلاً تحبّه من بعيد، وتريد أن تقول له كلّ ليلة: أنا هنا.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app